الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة علي لونيسي- البليدة -2
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية وآدابها

أعمال الملتقى الدولي الأول

ترهين الخطاب النقدي العربي الحديث والمعاصر
(إشكالات- آفاق - تحديات)

الجزء الرابع

المقارنة والمقاربة بين النقد الغربي الحديث والمعاصر والنقد العربي القديم.
(الطرائق والكيفية- الشروط- الحدود)

إعداد وتقديم
د. عبد الحليم ريوقي

المنظم يومي 25 - 26 نوفمبر 2019
بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات
جامعة البليدة 2/ الجزائر

الترقيم المعياري الدولي: ISBN: 978-9931-07-103-3

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة علي لونيسي– البليدة 2–
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية وآدابها

أعمال الملتقى الدولي الأول

ترهين الخطاب النقدي العربي الحديث والمعاصر
(إشكالات- آفاق - تحديات)

الجزء الرابع

المقارنة والمقاربة بين النقد الغربي الحديث والمعاصر والنقد العربي القديم.

(الطرائق والكيفية– الشروط– الحدود).

إعداد وتقديم

د. عبد الحليم ريوقي

المنظم يومي 25 – 26 نوفمبر 2019
بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات
جامعة البليدة 2/ الجزائر

الترقيم المعياري الدولي: ISBN:978– 9931– 07– 103– 3

الترقيم المعياري الدولي: ISBN:978- 9931- 07- 103- 3

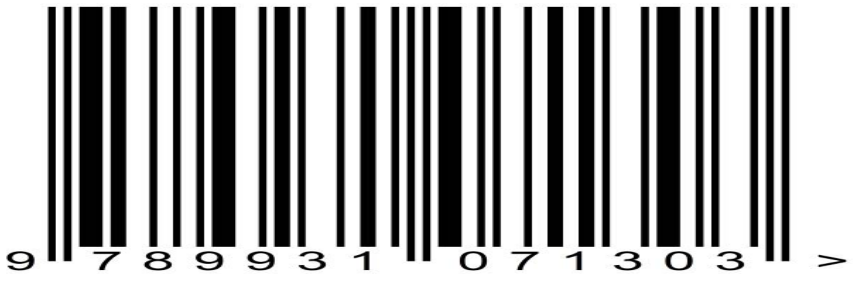

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة علي لونيسي– البليدة 2–
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية وآدابها

أعمال الملتقى الدولي الأول

ترهين الخطاب النقدي العربي الحديث والمعاصر

(إشكالات– آفاق – تحديات)

المنظم يومي 25 – 26 نوفمبر 2019
بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات
جامعة البليدة 2 /الجزائر

الرئيس الشرفي
أ.د: خالد رامول / رئيس جامعة البليدة 2
المشرف العام
د. جويدة عباس / عميد كلية الآداب واللغات
رئيس الملتقى
د. عبد الحليم ريوقي

النقد العربي المعاصر وصنوه الغربي
تثاقف ندي أم تفاعل وهمي

د.عبد القادر طالب

جامعة أمحمد بوقره– بومرداس

- الملخص:

يسعى هذا البحث إلى مقاربة واقع انفتاح النقد العربي المعاصر على النقد الغربي؛ بالوقوف عند أبرز تحولات وإشكالات هذه المثاقفة بالممارسة النقدية العربية المعاصرة. وعليه، يطرح البحث في هذا السياق عدة تساؤلات أهمها:

ما واقع النقد العربي المعاصر؟ كيف تلقّى النقد العربي المعاصر لمناهج النقد الغربي؟ ما الذي أفاده من مثاقفته لها؟ هل كان الثاقف بينهما ندّيا، خاضعا للوعي النقدي أم تفاعلا وهميا و مجرد تبعية ومحاكاة للآخر؟ ما أهم الإشكالات التي ما فتئت تفرض نفسها على واقع الممارسة النقدية العربية المعاصرة ؟ و ما الإجراءات الكفيلة بتجاوزها؟

Abstract:

This research deals with the reality of contemporary Arab criticism in terms of its acculturation of Western criticism; to stand at the shifts of this acculturation and the resulting problems of contemporary Arab monetary practice.

Therefore, the research in this context raises several questions:

What is the reality of contemporary Arab criticism? How Arab criticism received Western criticism? Was acculturation subject to critical awareness or mere subordination and simulation of the other? What are the most important problems of acculturation in contemporary Arab criticism؟

– توطئة:

شهد الخطاب النقدي الغربي، الحديث و المعاصر عدة تحولات في طروحاته المعرفية، النقدية بشكل أفضى إلى تعدّد نظرياته وتَنَوّع مَناهجَ قراءة النّص ونقده؛ سياقية كانت هذه المناهج أو نسقية، أو ما بعد نسقية...، ولم يكن الخطاب النقدي العربي الحديث و المعاصر بمنأى عن هذه التحولات التي شهدها صنوه الغربي، و إنما طالت حماه– هو الآخر– ولامسَهُ وهجُهَا؛ إذ أفاد من توجهاتها و اقترض من معطياتها سعيا منه إلى مواكبة مستجدات النقد وآليات مقارباته للنص، في سبيل الوصول إلى مقاصد المُبْدِعِ والمُبْدَعِ؛ من منظور أن الناصّ مدّع و النصّ أطروحة تحتاج إلى تحقيق.

ولئن كان من النقاد العرب من يقرّ بفضل النقد الغربي؛ في رقيّ النقد العربي؛ بتطوير آلياته وإجراءاته القرائية، والانعطاف به فكرا وتذوقا في مقاربة النص الأدبي، فإنّ منهم، من يفنّد هذا الرأي ويؤكّد أن مثاقفة نقدنا للنقد الغربي، لم تكسبه خصوصية الطرح أو استقلالية المنهجية، إذ لم تفض فعاليات التأليف و الترجمة من النقاد العرب إلى الإحاطة بمناهج النقد الغربي والإفادة منها بشكل واع، و ظلت الممارسة النقدية العربية عرجاء، بعيدة عن حيثيات النصّ العربي.

وبناءً على ما تقدّم، نسعى من خلال هذه الورقة البحثية، إلى تسليط الضوء على واقع الخطاب النقدي العربي المعاصر؛ بالتطرق إلى أبرز إشكالاته المطروحة بفضاء الممارسة النقدية العربية المعاصرة، مع إبداء جملة مقترحاتٍ، نراها كفيلة بتجاوز أزمته، مثيرين في هذا السياق عدة تساؤلات نحاول إضاءة بعضٍ من جوانبها، أبرزها: ما الذي أفاده النقد العربي بمثاقفته للنقد الغربي؟ هل كانت مثاقفة

ندّية، خاضعة لوعي مُمَنهَجٍ ولرؤية معرفية، أساسها المساءلة والتمحيص؟ أم كانت مثاقفة تقليدٍ وتبعية ومجرّد تفاعلٍ وهمي لا أكثر؟ ما أهم إشكاليات النقد العربي المعاصر، التي ما فتئت تشكل عائقا أمام تحقيق تثاقف نقدي إيجابي وفاعلٍ؟ ما السبيل إلى إنتاج مناهج نقدية عربية فاعلة في مقاربة نصوصنا العربية؛ مناهج لها هويتها و استقلاليتها، دون إلغاء إفادتها من المنجز النقدي الإنساني؟

– في ماهية المثاقفة:

تتعدد وتتنوّع مفاهيم المثاقفة "*Acculturation*" بين الدارسين لها والباحثين في مجالها، فقد عرفتها مدونة (**لينتون وهيرسكوفيتش**)"*Linton et Herskovits*" سنة (1936) بأنها"مجموع الظواهر الناتجة عن الاتصال المباشر والمستمر بين مجموعة أفراد أو ثقافات مختلفة، مع ما يترتب عن ذلك من تغيرات في الأنماط الثقافية لهذه المجموعة أو تلك" وقد حمل مفهومها بمعجم (**كازمرسكي**) "*kazimirski*"معنى الصراع الذي لا تتساوى أطرافه"، ويعرفها الباحث الفرنسي(**ميشيل دوكوستر**) بأنها"مجموع التفاعلات التي تحدث نتيجة شكل من أشكال الاتصال بين الثقافات المختلفة كالتأثير والتأثر والاستيراد والحوار والرفض والتمثّل وغير ذلك، مما يؤدي إلى ظهور عناصر جديدة في طريقة التفكير وأسلوب معالجة القضايا وتحليل الإشكاليات؛ مما يعني أن التركيبية الثقافية و المفاهيمية لا يمكن أن تبقى أو تعود بحال من الأحوال إلى ما كانت عليه قبل هذه العملية" وإذا كان مصطلح المثاقفة هو الأكثر تداولا بين حقول المعرفة، إذ يُردّ تاريخ ظهوره إلى سنة (1880) مع الأنثروبولوجيين الأمريكيين تحديدا، فإنّها قد التصقت مفاهيمُها بمصطلحاتٍ أخرى مثل:(التداخل الثقافي) لدى الإنجليز أو(تداخل الحضارات) لدى الفرنسيين أو(التحوّل الثقافي) عند الأسبان...[1]

المثاقفة عموما؛ ضرورة إنسانية وحتمية حضارية لا مفرّ منها، فهي تواصل و تلاقح بين ثقافة الأنا و ثقافة الآخر يكرسه التعاطي مع جديد العلوم والاستفادة من المنجزات المعرفية الحاصلة واستشراف آفاقها؛ وكل انفتاح فاعل و تثاقف راشد هو بلا شك سمو بالذات ذهنيا ونضج لها فكريا وتطوير لآلياتها المعرفية وتعميق لطموحاتها الثقافية،"فلا غضاضة على بلد يستعين في ميادين العلم والأدب والفن بخبرات بلاد أخرى ليتحقق ما يصبو إليه من تقدم مادامت الحضارات الحديثة ثمرة جهود الجميع، ومن ثمّ ملكا للجميع، ولكن الغضاضة في أن يظلّ تابعا فكريا وثقافيا لثقافات أجنبية"[2]، إذ لا يجب أن يفهم فعل المثاقفة بضياع الحدود الكلّية بين الذاتين المتثاقفتين؛ فتتماهى إحداهما في ثقافة الأخرى إلى حدّ الذوبان والتلبّس، وإنّما يظلّ كلاهما منتميا لثوابته المعرفية وخصائص ثقافته، رغم الاقتراض المنهجي من الأخرى ولاستيفاء هذه الشروط، وتحقيق مثاقفة هادفة سؤالا ومحتوى، لابد من توفّر عاملين أساسيين هما:

- امتلاك وعي علمي يؤطّر عملية الانفتاح والتفاعل مع الآخر، بالتأسيس لمنهج يرتكز على البحث والنظر والتقصي في نقل أو ترجمة معطيات ومفاهيم ثقافة الآخر، لمعرفة عميقة بالمنشأ التاريخي لمعطيات هذه الثقافة؛ إذ"لكل ثقافة منطقها المتحكم بها وأن انتقال المعارف من نظام ثقافي إلى الآخر بدون استيعاب الظرفية التاريخية و الابستمولوجية التي أنتجت هـذه المعارف يفضي إلى انفصام بين الفكر وسياقه الواقعي"[3]
- استكناه مقاصد وخلفيات مختلف علوم ومعارف الثقافات الإنسانية، وعدم الانبهار ببريق عناوينها أو التناول السطحي لمقولاتها، حتى يتبيّن غثّها من سمينها و طالحها من صالحها، وذلك لتمييز حدود الإفادة من خبراتها ومعارفها وتحصين كيان الأمّة المستقبلة ثقافيا من التبعية أو الذوبان والفناء فيها،كما أكّد ذلك الأديب والناقد (عباس محمود العقاد) في حديثه عن استقبال الأمة العربية لمذاهب الفكر الغربي، بقوله:"من الخير أن تدرس المذاهب الفكرية بل الأزياء الفكرية كلما شاع منها في أوربة مذهب جديد، ولكن من الشرّ أن تدرس بعناوينها دون ما وراءها من عوامل المصادفة العارضة والتدبير المقصود"، فالهوية الواقية حسبه ألزم للعالم العربي في (النصف الثاني من القرن العشرين) مما كانت في جميع الأدوار الماضية منذ ابتداء النهضة في العصر الحديث، فإنّ الدعوات العالمية خليقة أن تجور على كيان القومية، وأن تؤول بها إلى فناء كفناء المغلوب في الغالب"[4]، وهذا ما لا تحمد عواقبه.

– تحولات الخطاب النقدي العربي المعاصر:

إن مقاربة واقع النقد العربي المعاصر وإعطاء صورة دقيقة عن مثاقفته للنقد الأدبي الغربي، وما شهده من تحولات وإشكالات بفعل هذه المثاقفة، ليس بالأمر المتيسّر لكلّ من أراد الخوض في هذه المسألة؛ فالإقبال على معاينة تجربة الناقد العربي بكاملها، تتطلب– على حدّ قول الناقد (مُحَمَّد صابر عبيد)–"إلى دقّة علمية عالية وحذر شديد، ومن أجل أن يعي المعاين طبيعة اللبس والارتباك والفوضى التي دخلت التجربة النقدية العربية في خضمّها إثر المدّ المنهجي الذي اجتاح العقل النقدي العربي، فإنّ عليه أن يترصد حدود التجربة في مدى استقلاليتها من جهة، وفي المدى الذي ذهبت إليه باتجاه آخر من جهة أخرى، والكيفية التي انعكس فيها هذا وذاك على جوهر النص النقدي بوصفه الممثل لصوت الناقد"[5] المعاصر، وهذا ما لا تلمّ به مداخلتنا بالإجمال وإنما تركز على نقاط معيّنة في هذه المقاربة.

لقد اقترنت ظاهرة الإبداع الأدبي الحديث والمعاصر،–"بوصفها واحدة من أخصب الظواهر، وأكثرها قدرة على إثارة احتمالات التفسير والتأويل، في كيفية تكوّنها وفي عناصرها الأساسية، في ما تنطوي عليه من دلالة وما تؤدّيه من وظائف، وما يتعلق بقضايا التأثر والتأثير..."[6]– بفعاليات نقدية موازية لها، ارتكزت على سلسلة مناهجَ معبّرةٍ عنها، كانت سبيلها إلى الاقتراب من عالم هذه الظاهرة الأدبية وبمثابة مفاتيح تسهل عملية استقرائها وسبر أغوارها واستيفاء جلّ مستوياتها ومقاصدها، وتختلف هذه المناهج وتتباين طرق تعاملها مع النصّ الأدبي وفقا للمرجعيات المعرفية التي انبثقت عنها وأسست لمقولاتها؛ فلسفية كانت أو ألسنية، ذلك"أنّ علم تاريخ هذه المناهج النقدية هو علم الأشكال التاريخية التي تنتج هذه المناهج– المناهج التي تُنْتِجُ بالمقابل النصّ الأدبي بوصفه موضوعها، بوصفه ((نصا للنقد))"[7].

ولئن كان النقد الأدبي عند العرب ليس بمثل بعض الأنواع الأدبية الجديدة التي عرفوها فترة اتصالهم بالغرب في العصر الحديث،"غير أن الجمود الذي أصاب الحضارة العربية الإسلامية خلال القرون التي حكمتها الخلافة العثمانية، أصاب النقد الأدبي مثلما أصاب بقية المجالات، وبالتالي فإن ما نسميه اليوم بالنقد الأدبي[المعاصر] هو شيء لا صلة له بذلك النقد القديم وإن بقي له أثر مع بعض نقادنا المحدثين ولذا؛ فالنقد العربي الحديث والمعاصر، هو النقد الذي اتصل بالثقافة الأوربية وأخذ عنها، فأثرت في بنيته الأساسية وتياراته أو اتجاهاته ويبدأ هذا النقد أواخر القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين"[8]؛ وهي فترة شهد فيها النقد العربي حراكا واسعا ومسته طفرات كبيرة على مستوى إجراءاته وآلياته القرائية.

لقد خاضت مناهج النقد المعاصر التي نشأت وانتعشت في الغرب، مسيرة طويلة أسست لاتجاهين رئيسين:**اتجاه سياقي و اتجاه نسقي**؛ اهتم الاتجاه الأوّل بمقاربة النصّ الأدبي وتفسيره وفق سياقات خارجية سواء كانت هذه السياقات تاريخية أو نفسية أو اجتماعية أو أسطورية، بينما اهتم الاتجاه الثاني بداخل النص الأدبي"على أنّه دائرة مغلقة ينمو ويتشكّل وفق قوانينه وشروطه الخاصّة به"[9] متبنيا مقولة ((مقاربة النصّ الأدبي بذاته ولذاته)) كالمنهج البنيوي مثلا، وبالتالي فظهور الاتجاه الثاني كان ردّة فعل على ما وقعت فيه مقاربات الاتجاه الأوّل من انسداد، لما أهملت بنية النص الأدبي أو نسقه كلّيا، و بالغت في تحليله وتفسيره من منطلق أنه وليد للسياقات السابقة أو أنّه صورة عاكسة لها على نحو ما، وإن كان من المقاربات النقدية للاتجاه الثاني ما زلتّ هي الأخرى أيضا بغلوّها في تسييج النصّ وعزله عن محيطه، مما اضطر الخطاب النقدي الأدبي المعاصر إلى السعي جديا للخروج من مأزق هذه المقاربات النقدية؛ فكان التأسيس لمقولة أخرى تتبنى ((الداخل الخارج)) بـ"جعل الخطاب الأدبي هو الوثيقة الأساس التي تسعى المقاربة النقدية لقراءتها عبر تلمس دلالاتها العلاماتية من خلال المستويات الأساسية التي يؤسس عليها الخطاب الأدبي"[10]، كالأسلوبية،

السيميائية...، وبدورها قد أفرزت مقاربات هذين الاتجاهين نظريات نقدية أخرى نادت بأهمية القارئ وإبراز دوره كمتلق للنص حيث عملت على استعادة مكانته المفقودة بالخطاب النقدي المعاصر، بعدّه ثالث قطب للعملية النقدية، التي بدأت بالمؤلف ثم انتقلت إلى النصّ، و يتعذّر تحديد مدرسة بعينها توحد اهتمام أعلام هذا التوجه النقدي، كونه استفاد"من الطروحات الحديثة سواء اللغوية منها أو النفسية أو الحفرية أو البنيوية... والأسماء التي ارتبطت بهذا النوع من النقد هي في الأصل الأسماء الألمانية خاصة التي قامت على مقولات الناقد الهولندي رومان انغاردن: أمثال (فولفغانغ آيزر وهانز روبرت ياوس) أما على الجانب الأمريكي فهناك(نورمان هولاند وجيرالد برنس)..."[11]

ولا غرو أن تحولات هذه الاتجاهات النقدية ذات الأصول الغربية، قد طالت حمى النقد العربي ولامسَهُ وهجُهَا، حيث أفاد من معطياتها ومفاهيمها، واقترض من آلياتها وإجراءاتها القرائية في مقاربة النص الأدبي العربي، **وقد مر هذا التثاقف النقدي العربي مع صنوه الغربي بمرحلتين أساسيتين هما:**

- مرحلة الاتصال مع النقد الغربي (الانبهار):

وتزامنت هذه المرحلة مع فترة ركود في الفكر العربي، طال كلّ أصعدة الحياة العربية، مقابل تفوق الغرب و استعلائه في تصدير علومه ومنجزاته المعرفية، وهو ما جعل الذات العربية تنبهر بمنجزاته وتتأثر بما يجيده من علوم وفنون، فسعت بموجب ذلك إلى مسايرته بتعلمها وإجادتها للحاق بنهضته.

وبما أن أيّ تفاعل فكري، معرفي عرفته الأمم لم يحظ في بداياته إلاّ بتواصل فردي، ثمّ سرعان ما تحوّل إلى تفاعل جماعي، يؤكد صاحبا دليل الناقد الأدبي؛ أنه بعد حوالي مائة عام من إرسال مصر لرفاعة الطهطاوي ورفاقه وهم أوّل مبعوثيها لتلقي ثقافة أوربية عامة، قد ابتعث الطالب (أحمد ضيف) كمتخصص في الدراسات الأدبية (1912م)، فكان أول عربي قد أفاد من الفكر النقدي الأوربي ممثلا بالمدرسة اللانسونية الفرنسية، ومن المؤسسين الأوائل للتفاعل بين النقدين العربي والغربي، فبعد أن عاد حاملا للدكتوراه من السربون، أول ما بشّر به (أحمد ضيف) هو(المنهج التاريخي) الذي تلقاه عن الفرنسي (**جوستاف لانسون**)، داعيا إلى ضرورة الانفتاح على أساليب النقد الأوربي الحديث للتغير من أنماط وأدوات التفكير النقدي العربي، الذي انتقد مفاهيمه ومناهجه الراسخة لدى العرب[12]، وقد تكرر نموذج التأسيس للتفاعل الفردي مع التفكير النقدي الغربي مع أدباء ونقاد وأكاديميين عرب آخرين أمثال: طه حسين، أحمد أمين، أمين الخولي وأحمد الشايب... فطه حسين مثلا أفاد من مثاقفته للنقد الغربي في تأثره بمناهجه التاريخية و الاجتماعية، محتذيا في ذلك (لانسون،سانت بيف وهيبوليت تين) ويتجلىّ ذلك بمؤلفيه"في ذكرى أبي العلاء المعري"و"في الشعر الجاهلي".

وفي سياق متصل بهذه المرحلة دائما، كان للاتجاه الوجداني (الرومانطيقي) الممثل بمدارسه الثلاث (الديوان، أبولو، الرابطة القلمية) حضوره الفاعل والمؤسس للمثاقفة النقدية بالخطاب النقدي العربي، فقد حاولت هذه المدارس وعلى رأسها مدرسة الديوان- الحاملة لاسم كتابها ذي الجزأين، المؤلّف1920-1921م من طرف (عباس محمود العقاد وإبراهيم المازني وعبد الرحمن شكري)- إدخال المذهب الرومانطيقي إلى الأدب العربي الحديث، ومن ثمّ إدخال الاتجاه النفسي إلى النقد العربي الحديث، الذي حاول العديد من النقاد العرب الاستعانة بإجراءاته في مقاربة النص الشعري القديم، كما فعل (العقاد والنويهي) في دراستيهما لشخصيتي"أبي نواس وابن الرومي"، هذا على غرار بعض المحاولات الفردية التي يعتقد أنها"اتجهت بالنقد النفسي العربي اتجاها جادا، منها محاولة (أمين الخولي) الذي دعا إلى اصطناع علم النفس في دراسة غوامض التجربة الفنية، وفعل ذلك في دراسة (حياة أبي العلاء المعري)، ثم تبعه (مُحَمَّد خلف الله أحمد) في دراسته (من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده)"[13]، وقد كان في طليعة الدراسات الأكاديمية في هذا المجال، دراسة (مصطفى السويف) المعنونة بـ (الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة)...

و رغم تأسيس هذه المرحلة لبدايات المثاقفة النقدية الحديثة بين العرب والغرب، إلاّ أن الممارسة النقدية فيها قد شابها الاضطراب ووسمت بالازدواجية، حيث تأرجح جلّ نقاد هذه المرحلة بين التطلّع إلى الإفادة من مناهج النقد الغربي الحديثة وبين وفاء مستمر لأساليب النقد العربي القديم وحنين مشدود إلى ذلك النقد الانطباعي الموشّى بأساليب البلاغة العربية، وهذا ما قد نلمسه لدى العقاد وطه حسين وغيرهما؛ فهذا الأخير مثلا كثيرا ما زاوج بين الاثنين أو تاه بينهما، حيث ظلّت قراءاته النقدية" منفتحة على الغرب، ولم تقطع صلتها بالتراث... وقد استمد وعيه النقدي والأدبي والعلمي من تأثير قراءته للأدب الفرنسي وثقافته"[14]، وهذا التزاوج يتجلّى على سبيل المثال في دراسته للمتنبي؛"فهو من ناحية مهتم بشعر المتنبي لاستجلاء ظروف حياة الشاعر وعصره على طريقة سانت بيف وتين، ومن ناحية أخرى حريص على التواصل مع القارئ من خلال أسلوبه الوصفي الانطباعي المبسط"[15]، وإن كان يُعتقد أن الفكر النقدي لطه حسين لم يغترف في حقيقته من مصدر معرفي واحد أو رؤية نقدية فحسب، وإنما اختمر برؤى فلسفية متعددة؛ منها "تلك الصادرة عن الفلسفة التنويرية بما فيها من عقلانية والفلسفة الوضعية ذات التوجه الحسي التجريبي، هذا بالإضافة إلى الرؤية الفلسفية والمنهجية المغايرة، بل المتعارضة مع الأخريين والمتمثلة بالفلسفة الديكارتية"[16]، القائمة على مبدأ الشك.

– مرحلة الانفتاح على النقد الغربي (الاحتذاء):

تعكس هذه المرحلة تزايد اهتمام النقاد العرب سواء كانوا أكاديميين أو متخصصين بالنقد الغربي بشكل منقطع النظير، تأليفا وترجمة للكثير من أعمال النقاد الغربيين كخطوة أولى للتعريف بمناهج هذا النقد ونظرياته، ثمّ لمتابعتها وتسهيل الإفادة منها ثانيا، وقد شمل اهتمام هذه الفترة التي تمتدّ من ستينيات القرن العشرين إلى يومنا هذا، مناهج النقد الجديد ونعني بذلك مناهج النقد النسقي أو النصّاني كالبنيوية و السيميائية...ثمّ مناهج مابعد الحداثة، وأهم ما يسم هذه المرحلة، ظاهرة (التمذهب أو التمنهج النقدي) لدى النقاد العرب لاسيما فترة التسعينيات؛"فمن يطالع النقد العربي المعاصر سيشعر بأنّ اهتمام بعض نقاده بتحديد مناهجهم في بدء دراساتهم وحرصهم على الدخول في نقاش نظري لتلك المناهج يكاد يفوق ما تطالعنا به كثير من كتب النقد الغربي...[وفي مقابل ذلك] نجد بالطبع قطاعا عريضا من النقاد الذين ينتجون نقدا غير عابئ بالمنهج"[17]، و من النقاد العرب الذين اشتغلوا على مناهج النقد الجديد، نذكر على سبيل المثال لا الحصر: جابر عصفور، صلاح فضل، كمال أوديب، يمنى العيد، عبد الفتاح كليطو، سعيد يقطين، مُحَمَّد مفتاح، حميد لحمداني مُحَمَّد بنيس، عبد المالك مرتاض، عبدالله الغذامي...والقائمة تطول.

جماع ما تقدم؛ أيا كانت ميزات هذه المرحلة وتوجهات النقد العربي المعاصر فيها، فإن المثاقفة النقدية العربية للنقد الغربي المعاصر والانفتاح المتزايد عليه، لم يكسب النقد العربي خصوصية الطرح أو استقلالية المنهجية وإنما ظلت الممارسة النقدية العربية المعاصرة تحت تأثير النقد الغربي بمختلف مناهجه وتياراته، ولم تفض فعاليات التأليف والترجمة إلى الإحاطة بمناهج النقد الغربي والإفادة منها، وإنما آلت في نهاية المطاف– حسب سيد البحراوي– إلى"خلل وتضارب في ترجمة المصطلحات، إلى تناقض في فهم الجمل إلى قصور في فهم الخلفية التي تنطلق منها المقولات، والنسق الذي تنتمي إليه الجزئيات والسياق الذي تنبع منه النظريات وتجيب عن أسئلته، سواء كان سياقا ثقافيا أو سياسيا أو اجتماعيا، وكلّ هذا أوقع القارئ العربي الذي لا يجيد الاطلاع على اللغات الأصلية المنقول عنها والذي أخذته الدهشة والانبهار في حالة من الصنمية إزاء المقدم الذي لا يفهمه، وإن كان ماهرا استطاع أن يستل مصطلحا من هنا وآخر من هناك وراح يردده في المنتديات الأدبية، وعلى المقاهي دون وعي أو إدراك للتنافر الممكن وقوعه"[18]، وهذا ما أوقع النقد العربي المعاصر في أزمة منهج نبعت في الأصل من أزمة نقص معرفي بهذه المناهج، مما أوقع بدوره النص الأدبي العربي الموضوع تحت مجهر هذه المناهج الغريبة عنه، بسياقاتها ومقاصدها وخلفياتها في أزمة قراءة، وألحق به تشويها وطمسا لهويته اللغوية والثقافية، ومن ثمّ فأيّ تفكير للخروج من هذه الأزمة مرهون بمدى وعي نقادنا بإشكاليات النقد العربي واستيعاب همومه الحقيقية، ثمّ سدّ ذلك النقص المعرفي المثار حول مناهج النقد الغربي، ومن الهام جدا الوعي بالنص العربي المبدع وإدراك خصوصياته وسياقاته المميزة له عن

خصوصيات وسياقات النص المبدع من قبل الآخر، لأجل بلورة منهج نقدي له كيانه الثقافي وتحولاته الفكرية، له مفاهيمه ومقولاته وإجراءاته التي تنتجها نصوصنا الأدبية، لا نصوص الآخر.

- الخطاب النقدي العربي المعاصر وإشكالات مثاقفته للنقد الغربي:

قد لا نبدو منصفين كما ينبغي، إذا ما تجاهلنا كلّيا الدور الذي قام به النقد الأدبي المعاصر بأصوله الغربية في رقيّ النقد العربي الحديث والمعاصر بتطوير آلياته وإجراءاته القرائية والانعطاف به فكرا وتذوقا وتحليلا للنص الأدبي ومن مستويات عدّة، ومنه فقد أحرز النقد العربي بمثاقفتة للنقد الغربي انجازات يتعذر على أيّ مناّ نفيها، بيد أنه من الأمانة أيضا أن نشير في السياق ذاته أن ما مسّ نقدنا العربي من تطوير منهجي وإجرائيّ وما أحرزه من انجازات، قد رافقتها وما فتئت إلى يومنا هذا الكثير من الإشكاليات بالممارسة النقدية العربية المعاصرة، منها ما يستعصى تجاوزه أو تصويبه.. فما هي هذه الإشكالات يا ترى؟ وما مدى تأثيرها على النقد العربي المعاصر؟

أولا: جدل الأصالة و المعاصرة:

إنّ أهم إشكالية أفرزتها المثاقفة العربية للثقافة الغربية عامّة ومافتئت تواجهها، هو تعدد طروحات المفكرين العرب وتباين مواقفهم إزاءها، ويبرز على واجهة هذه الإشكالية رأيان، يحتدم الصراع الفكري بينهما بشأن المثاقفة مع الفكر الغربي؛ الرأي الأوّل يمثله أنصار الأصالة الذين ينتصرون لتراث الأمّة العربية و يتوجسون خيفة من ثقافة الآخر؛ من هيمنتها على حساب قيم وثوابت ثقافة الأنا والخشية من استلاب هوية الأمّة، ولم يصدر موقفهم هذا من العدم، وإنّما هو وليد ترسبات إيديولوجية وسوسيولوجية أفرزتها العلاقة التاريخية غير المتكافئة بين العرب والغرب، المتمخضة عن جدلية الغالب والمغلوب، التي كرست على الدوام منطق العداوة والرفض المسبق للآخر، أمّا الرأي الثاني فيمثله الممجدون لثقافة الآخر، المرتمُون بين أحضانه، والواثقون بصوابية الفكر الغربي ورقيّه على فكر الأنا.

ومن هذا الصراع القائم ردحا من الزمن بين الفئتين تتولد إشكالية المثاقفة النقدية العربية المعاصرة لمناهج الفكر النقدي الغربي، وهي إشكالية لا تجاهلها ولا محاولة الانتصار فيها لطرف على حساب الآخر بالأمر الهيّن أو المفيد؛ فالأجدر تصويب المسألة، بإبراز موطن الصواب من الخطأ في رأيي الاتجاهين لإحلال مفهوم التثاقف الحضاري ونبذ التصارع الأيديولوجي، فما يصدر عن الفئة الأولى من حذر وتوجس هو شيء طبيعي؛ فيقظة مفكري الأمّة ومثقفيها من الثقافات الأمم الوافدة عليهم والمتفاعل معها، مسؤولية يضطلع بها هؤلاء لوجوبها عليهم عمّا سواهم من أفراد الأمّة، وليست هذه الصفة بحكر على الأمّة العربية وإنما هي أمر قائم بين سائر الأمم والشعوب، لكن ما يخالف الصواب ويُخْلِل الخطأ أن يتحوّل هذا التوجس والخشية إلى هذيان يلازم أعلام الأمّة تحت مبرر(الغزو الثقافي)، فيصل الأمر إلى حدّ المبالغة والغلوّ في نبذ الآخر والعزوف المطلق عن مشاركته الفاعلة والايجابية في تبادل المعارف والعلوم، وفي ذلك تعطيل للتواصل الثقافي بين شعوب الأرض وأممها، وبهذا يتأسس الانغلاق ويبنى صرح القطيعة السلبية التي قد تنتقل عدواها إلى الأجيال المتعاقبة فتتوارثها، وهذا ما لا يُجوّزُه منطقٌ ولا يقبله ذو عقل مفكرٍ واعٍ، يميّز بين ما ينفعه وما يضرّه، ولا تقرّه قبل ذلك شريعة الله سبحانه وتعالى، أصدق القائلين في محكم تنزيله:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات الآية:(13))

فتحصين الأمة ثقافيا لا يتأتّى بإقرار القطيعة مع الآخر والانكفاء على الذات،- فذلك يولج الأمّة في رتابة سكونية تؤول إلى ركود يشلّ حركتها ويغيّبها عن ركب منجزات الحضارة الحديثة -، وإنّما يتأتّى بحضور"الذات الحضارية"- كما يقول محمّد محفوظ- وتأكيد فعاليتها ونديتها للذات الأخرى"عن طريق إعادة تنظيم الحياة العقلية والمادية والأخلاقية للمجتمع، على ضوء ثوابت الحضارة والتاريخ"[19] وبحضور الوعي الهادف دائما كشرط أساسي؛ فتوفّر الوعي و"بنوده ومفرداته في حياة الإنسان هو المهاد الفكري الضروري

للانعتاق والتحرر من قيود التقليد وأغلال التبعية وتحدّيات العولمة والانطلاق من آفاق نوعية إلى الأمام"[20]، تنهض بالثقافة العربية وتصلها بعجلة التطور الحضاري، بطريقة ندّية فاعلة، تعلي من شأنها و تعيد مجدها الحضاري المفقود من زمن غابر.

وفي مقابل ذلك، لا يعد الارتماء بين أحضان الآخر و الاعتقاد بكل وافد منه تسليما مطلقا، دون قراءة وتمحيص ومساءلة أيضا، سبيلا إلى التحضّر واللحاق بالآخر، فليس كل ما يكرّس الغرب تصديره لنا يُحمل بمحمل النوايا الحسنة فقد يدسّ بالعسل قليل من السمّ إن لم يكن كثيره ولا يجب أن ننسى أبدا، أن زعامة العالم الغربي للعالم برمته هو هدف رئيس سعى النظام الدولي الجديد منذ قيامه إلى الظفر به، عن طريق "التمركز الذاتي الغربي، وعدم التسليم بتعدد الحضارات ومواقعها، وهو نظام لا يقتصر على القضايا السياسية فقط، وإنّما يشمل جميع القضايا والجوانب"[21] الجوهرية في الثقافات المختلفة، و الأدب و النقد جانبان جوهريان أساسيان في جغرافية هذه الثقافات لدى كلّ أمّة.

وتأسيسا على هذا، لابد من مراجعة طبيعة علاقتنا مع الآخر، بل من الواجب علينا "أن نقوم بمراجعة فكرية- ثقافية نعود من خلالها إلى أصولنا ومفاهيمنا الأصيلة كخطوة أولى في سبيل إعادة تأسيس لمفاهيمنا ومقولاتنا الفكرية والثقافية، لكي نشارك بفكر فاعل وثقافة ناهضة في تطورات العالم"[22]، بعيدا عن دائرة الصراعات الأيديولوجية، القاتلة لروح الإبداع بذواتنا، والمعيقة لحركية الرقّي العلمي لأمتنا، وليكن في علم مفكرينا ونقادنا المنادين بتغريب نقدنا العربي والمغالين في الاعتقاد بالفكر الغربي ومناهجه، أنّ"متابعة الجديد في ميدان البحث والاستفادة منه هي ضرورة لازمة لاشك، غير أنه من الضروري أيضا أن تؤكد أن متابعة الجديد في ذاتها لا تصنع عالما...هذا معناه أنه لابد للباحث أو العالم أن يكون قد امتلك منهجا في البحث أصلا حتى يستطيع تنميته"[23]، أمّا إذا ظلّ تابعا للآخر منهجا وتفكيرا، فلا يعوّل على أدائه البحثي وتتعطّل معه الإنتاجية العلمية، وكما هو المعلوم أنّ"العقل التابع؛ أي العاجز عن الإبداع، هو عقل لا يستطيع التعامل مع الأفكار والآراء تعاملا حرا مبدعا"[24] وهو ما ينطبق على فئة كبيرة من نقادنا الذين يتبجحون بترديد مفاهيم ومقولات الفكر الغربي ومناهجه دون دراية علمية دقيقة أو معرفة عميقة بمرجعياتها.

ثانيا: قصور الرؤية و غياب المنهج:

المنهج النقدي في أبسط تعريف له، هو"رؤيا تتوخى الوصول إلى أسرار النصّ ومقاصده وأداة بحث منهجية تقرّب تحقيق هذه الغاية..[أو هو] فكرة تحمل رؤية جزئية أو كلية إلى الكون بهدف تفسير ما يحتويه من موجودات وظواهر والوقوف على العلاقات التي تربط بينها، وتحيل على القضايا المطروحة بطريقة تستند إلى نظريات وأدوات تسهّل الوصول إلى مقاصد المبدع والإبداع، من منظور أن الناصّ مدّع والنصّ أطروحة تحتاج إلى تحقيق"[25] وفي سياق التأكيد على أهميته وضرورة تسلّح الباحث به قبل ولوج أيّ عملية بحث أو مقاربة نصّية، جاء في قول منسوب للفيلسوف(ديكارت):

"لئن تترك البحث خير لك من أن تلجه من غير منهج"[26]، فمتى كان المنهج غائبا أو قاصر الفعالية بالممارسة النقدية، فإنّ هناك بالضرورة غياب أو قصور في الرؤية المسوّغة لهذا المنهج، ولذلك— كما يؤكّد الناقد عبدالله إبراهيم-" أثارت قضية الرؤية والمنهج اهتمام نقاد الأدب ودارسيه، ويمكن بصورة عامّة، التأكيد دون تردد، أن الجانب الخصب في العملية النقدية، بدءاً من أرسطو وهوراس، مرورا بالجرجاني، وصولا إلى لوكاش وتودوروف ونور ثروب فراي،- على سبيل المثال وليس الحصر- إنما نهض فضلا عن توافر عوامل أخرى، على اقتران الرؤية الدقيقة والشاملة للعملية الأدبية بالمنهج المعبّر عنها. فبدونهما تفقد أيّ مقاربة جدواها، لا في غايتها فحسب، بل في سبل الوصول إلى تلك الغاية، وتصبح المقاربة ضربا من التضليل والخداع، لا الكشف والاستنباط والتأويل، وتفقد المقاربة النقدية خاصيتها الأساسية كونها حوارا منهجيا مع النصّ لاستقراء ثوابته ومتغيراته، وسبر عوالمه، وتعويم مدلولاته وتتحول إلى مرافعة قانونية تكيل اتهاما، أو تدرأه مما لا يمكن أن يفيد الخطاب الإبداعي، ولا العملية النقدية"[27]

و على ضوء هذا المعطى، فإن من أكبر الإشكالات التي أفرزها فعل مثاقفة النقد العربي لمناهج النقد الغربي، أزمة المنهج بالممارسة النقدية العربية المعاصرة، فافتقاد الناقد العربي إلى رؤية نقدية واضحة المعالم و الإجراءات، حالت بينه وبين بلورة منهج نقدي يستمدّ مشروعيته من النص الأدبي العربي، كفيل بمقاربة خصبة وعميقة له، تستوفي مستوياته وتثريها قراءة، يهتم بما يثيره من إشكاليات ويناقش ما يطرحه من قضايا.

و الناقد العربي يعايش هذا الإشكال بوعي منه وهو يمارس الفعل النقدي على النّص، لكنه غير مدرك بأن أزمة المنهج لديه باعثها الرئيس التقليد و التبعية المفرطة لمناهج النقد الغربي، التي ظل مصرّا و متفانيا في تطبيقها على النصّ العربي، رغم"أن هذه المناهج مازالت هي نفسها تطرح علامات استفهام على بعض أسسها أحيانا وعلى وظيفتها أحيانا أخرى...، أي مازالت بدورها محاولات رغم الخطوات الكبرى والمهمّة التي قطعتها"[28]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى الناقد العربي،لم يحط بالخلفيات الفلسفية لهذه المناهج ولم يع مقولاتها ولا مصطلحاتها جيّدا، و"حتى إن فُهمت أحسن فهم وأصحه، لن ينتج تطبيقها على الأدب العربي خيراً؛ ذلك لأنَّ هذه المقاييس قد استخلصت من دراسة أدب تختلف طبيعته عن طبيعة الأدب العربي اختلافاً عظيماً"[29]، و تجاهل الناقد العربي لهذه الحقيقة جعل من مقارباته النقدية مقاربات مبتورة، عرجاء، مضطربة، قلقة باستمرار- لا فوائد لها تُرتجَى، ولا أحكام موضوعية، متوخاة منها.

و بناء على هذا، فما دام أنّ هناك فئة كبيرة من النقاد العرب المعاصرين يؤمنون حتى الثمالة، بأنّ مناهج النقد الأدبي الغربي، هي مناهج مكتملة في تكوينها لا بنسبيتها وناضجة بإجراءاتها لا بمحدوديتها، و أنه لا مكان لنموذج ذاتي يضاهيها أو يكون بديلا لها، فإنّ إمكانية نقدنا الأدبي العربي المعاصر في إنتاج مناهج ندّية، لها فاعليتها في نقد نصوصه الأدبية، تبقى ضئيلة إن لم نقل معدومة حتى لا نحجب بصيصَ أملٍ، قد يكون بحوزة فئة أخرى من هؤلاء النقاد، فالاعتقاد بكمالية الآخر مقابل الانتقاص من الذات، هو سبب كاف في تغييب فعل التخطي والتجاوز، وحتى إذا ما حدث ذلك، فقد"يقع الانفصام أو الانقسام الذهني، انقسام بين الطموح المستحيل والممكن الرديء، أو انقسام بين الوجدان وبين العقل، أو انقسام بين بنية ذهنية لم تتطور تطورا حقيقيا، وبين اضطرار لرفع شعارات حديثة أو حداثية لمواكبة العصر أو ادعاء العصرية، وإزاء كل هذا نعيش الأزمة"[30]، التي لا تماثلها أزمة في مسيرة فكرنا النقدي، الخروج منها يحتاج إلى فكر نقدي واع، يمتلك الجرأة الكافية للسير نقيض ما استوطن بالعقل العربي الناقد واستعبده لأمد طويل.

ثالثا: فوضى المصطلح النقدي:

تحيلنا أزمة المنهج بالخطاب النقدي العربي المعاصر، على أزمة أخرى، هي مكمن قصور نقدنا و عدم إجرائيته، إنّها أزمة المصطلح النقدي، وسبب ربطنا أزمة المنهج بأزمة المصطلح؛ لأنهما- المصطلح و المنهج-"صنوان ليس في وسع أحدهما أن يستغني عن الآخر أثناء الفعل النقدي ودون ذلك يهتز الخطاب النقدي وتذهب ريحه ويفشل في القيام بوظيفته"[31]، فلئن كان المنهج مولّدا للمصطلح، فإنّ إجرائية المنهج مرهونة بفاعلية المصطلح ونجاعته في مقاربة النصّ.

فالمصطلح قوام العملية النقدية، وأيّ قراءة نقدية"لا تؤتي ثمارها ما لم تكن لغة التعبير عنها ترتكز على شبه مسلمات أو حدود قصدٍ وتعبيرٍ عليها هي المصطلحات؛ وبالنتيجة فليس هناك من علم إلاّ وله مصطلحاته، وليس هناك من مبدع كبير في النقد الأدبي وغيره من المعارف والعلوم إلاّ و يتميّز بمعجم اصطلاحي يوشك أن ينفرد به جزئيا في القراءة والوضع والاصطلاح...ومن ثمة فالمصطلح تاريخ العلم... ذلك أنّ متحدثا في أي علم إذا لم يصدر في كلامه عن لغة المصطلح في الحقل المعرفي أو العلمي الذي يصدر عنه، فإنّ كلامه سيقع في دائرة الغياب وضعف الفهم."[32]

إنّ أزمة المصطلح مسألة باتت تؤرّق النقاد العرب، و تثير قلقا وإزعاجا كبيرين للمتلقي العربي، حيث أضحى فهمه مضطربا و مفاهيمه ملتبسة، كلّما أقبل على قراءة نتاجات النقاد العرب المعاصرين، في مجالي التأليف أو الترجمة للنقد الغربي. وباعث هذه الإشكالية هو دائما اجترار الناقد العربي لمصطلحات النقد الغربي وتداولها في مقاربة النص العربي -- من قبيل الانبهار- إذ "كلما اخترع الغرب مصطلحاً ما؛ أو منهجاً طفقنا ننتصر له ونحن نمارس تبعيتنا بلذة مغرية...و شرعنا نعيب على نقادنا القدامى تقصيرهم عما وصلت إليه حركة النقد الحديثة...بل كلما ظهرت في الغرب مفاهيم جديدة أقلع نقادنا المحدثون عن السابقة، وألغوا ما قاموا به"[33]، وتبنوا الجديدة، دون أدنى مساءلة لها أو بحث في مرجعياتها الفلسفية أو محاولة تقصٍّ في أصولها المعرفية، أو اجتهاد في إعادة بلورة أو ابتكار مصطلحات توازيها وتستمد خصوصيتها من مرجعيات النقد و النصّ العربيين، مما تمخّض في نهاية المطاف عن أزمة مصطلحية بالممارسة النقدية العربية المعاصرة، أحدثت بين المتلقي العربي و خطابه النقدي فجوات قرائية وقطيعة ابستمولوجية دائمةُ.

و في ظلّ هذا الإشكال المصطلحي الذي يمرّ به نقدنا العربي،"فإن البحث عن زمانية أو مكانية تكوين حركة النقد الحديث عند النقاد العرب يكاد يكون ضرباً من المستحيل؛ ليس باعتبار التوزع الجغرافي أو التفاوت الثقافي فقط، وإنما باعتبار أن أكثرهم لا يزال يتمسح بذيول الثقافة الغربية ومذاهبها الأدبية واللغوية والأسلوبية والنقدية"[34]، على حدّ تعبير الناقد حسين علي جمعة؛ ناهيك عن جهلهم أو تجاهلهم لمعطيات الموروث النقدي والبلاغي العربيين، الأمر الذي أحدث فوضى بمصطلحاتهم النقدية و تباينا بمسمياتها و مفهوماتها فيما بينهم وإن تعلّق الأمر بمصطلح واحد، وخير دليل ما هو واقع من اختلافات مصطلحية بين نقاد المغرب العربي ومشرقه، التي تردّ أسبابها دائما إلى اللغة المترجم عنها؛ بعدّها الوعاء الحامل لثقافة الآخر ومنها مناهج النقد الأدبي؛ فإذا كان المغرب العربي منفتحا على اللغة الفرنسية، فإن المشرق العربي منفتح على اللغة الانجليزية، والأمثلة عن هذه الظاهرة ثريّة، لا يسعنا المقام هنا، التَطرّقَ إليها بالتفصيل.

رابعا: الاتصال النظري والانفصال الإجرائي (تغريب النص):

ونعني بذلك، عدم مطابقة الخطاب النقدي العربي المعاصر في مثاقفته لمناهج النقد الغربي، بين الجانب النظري لهذا الوافد النقدي و بين جانبه التطبيقي، الإجرائي في مقاربة النصّ الأدبي، ولذلك فخطابنا النقدي لم ينل من هذه المثاقفة سوى حظ التنظير، مقابل انفصال إجرائي، فرض عزلة على النص العربي، وأولجه في غربة لا تُعلم نهايتها.

فليس من شك أن فاعلية النقد تتجسّد أساسا في الاشتغال على النصّ، لا في اجترار مفاهيم و مقولات الآخر، فالنقد الأدبي في جوهره"ممارسة وهو كممارسة ليس تنظيرا على التنظير، يكرر المفاهيم أو يضيف إليها ما يضيف بعيدا عن النصّ "[35]، و إنما هو"نشاط لا يُكرَرُ بل يُنتج، نشاطٌ يتحدد بموضوعه"[36]، و من خلاله يدرك الناقد خصوصية هذا الموضوع (النصّ)، ويعي نقاط تميز تفكيره النقدي عن الآخر و إن اطّلع على منجزاته، على سبيل الاستزادة.

ولذلك، يؤكّد الباحث الفرنسي (برونو كليمان) بمؤلّفه (حكاية منهج) على أنّ النقد الأدبي"شكل من أشكال البحث الفكري، بل إنه بحث ذاتي يقرأ فيه الباحث أفكاره، وهو يقرأ أفكار غيره، بمعنى آخر؛ لكل باحث في النقد منهج يتضمّن حكاية، و إذ لكلّ حكاية يسائلها منهج خاصّ بها، وليس المقصود بوحدة المنهج و الحكاية تسخيف البحث، بل دفاع عن أصالته، أي دفاع عن الفردية النقدية المبدعة، التي تعرف مناهج الآخرين وتعترف بها، وتسعى إلى تخليق تجربتها أي منهجها الذاتي"[37]، ومن هذا المنطلق يمكن التمييز بين صوت الناقد الحقيقي ومعلّم النقد- كما يقول الناقد (مُحَمَّد صابر عبيد)-،"حيث لا يكتفي صوت الناقد بعرض النظريات النقدية أصولا ومقولات وتلخيصها، مكتفيا بموقعة العملية النقدية نظريّا كما هو الحال لدى معلم النقد، بل يتعدّى ذلك إلى تسخير الآليات و التقانات التي تتيحها هذه النظريات لغرس الروح النقدية في عقل الناقد لسانا و ذوقا و جسدا وحساسية، تلك الروح التي تطلق رغبته غير المحدودة في إحياء تمظهرات الخطاب وتجسيدها في لغة النصوص الإبداعية إلى درجة الإسهام الحقيقي والواضح في تطوير إنسانية المتلقي، وهو يتفاعل مع النص الإبداعي عبر النص النقدي تفاعلا روحيا..."[38]

و هذه إستراتجية – للأسف– لازالت الممارسة النقدية العربية المعاصرة تفتقد إليها، إذ ظلّت في كلّ محاولاتها الباحثة عن التفرّد والاستقلالية، محدودة، متأرجحة بين أمرين لا وسطية بينهما؛ فهي"تتقاذفها رياح التقليد؛ إما للموروث والتمسك به، وإما للآخر الغربي الذي أنتج حركاته النقدية وفق حياته وفلسفته وأدبه"[39]، وفي دوامة هذا التيه المنهجي، تغرّب النصّ بغياب لغة التواصل الحقيقية بينه وبين خطابه النقدي، فَأُبْعِدَ بذلك حضوره الواقعي و وجوده المادّي؛ من منظور أنّه نصّ له كيانه اللغوي و الثقافي، له ظروف إبداعه وسياقات تشكّله، المغايرة لنصّ الآخر.

صفوة القول، إن ما يعاب على النقد العربي و فعل مثاقفته لمناهج النقد الغربي، غياب وعي التفاعل الندّي وافتقاده للمحاورة البنّاءة، الهادفة إلى الابتكار والإضافة بعد تحصيل المفيد من الآخر، ولو اقتفى النقد العربي المعاصر أثر سلفه (النقد العربي القديم)؛ في القرنين الرابع أو السابع الهجريين لكان الأمر هيّنا؛ حيث انفتح النقاد العرب القدامى على الآخر، و ثاقفوا هم أيضا فكره النقدي، بيد أنهم سلكوا نهجا أكسب الثقافة العربية"قوة الحضور الواقعي و المادي؛ فما كان من تأثر بالثقافات الأجنبية الأخرى، فقد تحقق في إطار من الرغبة في الاستزادة، و تحقيق شمول المعرفة وسعتها، لا بدافع من تشخيص ذاتي يظهر العجز والقصور وانحسار الإمكانات عن مجاراة حركية التطور، مثلما يحصل اليوم من مثاقفة اضطرارية أو جبرية اندفع إليها العقل العربي؛ بدافع جوهري من الشعور بالعجز و غياب القدرة على تقديم الإجابات الحقيقية عن أسئلة الظاهرة الأدبية"[40] وما تثيره من إشكاليات حول المقاربات المتعسّفة التي ارتهنت إلى نظريات ومناهج الآخر، وغمطت حقها في اختيار وإنتاج المنهج والإجراء اللذين يوافقان نسقها اللغوي ويتناغمان مع سياقاتها المعرفية.

وعليه، فالنقدي العربي المعاصر"تعوزه المفاهيم النقدية"[41] وإعادة بنائه وتأصيله يضعه أمام تحدّ كبير هو إعادة إنتاج مفاهيم ذاتية، خاصّة به؛ مستلّة من منهج بحثي نقدي عربي، يستمدّ أصوله الحقيقية من نصوصه الأدبية و المعرفة بتشكلاتها وحيثياتها وعملية "إعادة إنتاج هذه المفاهيم في نقدنا يطرح ضرورة إقامة جسور [موضوعية] هدمت بيننا وبين تراثنا النقدي، بيننا وبين ما كان منه بحثا علميا في ميدان اللغة"[42] و الأدب، مقابل تواصل مع النقد الغربي يتشبث بالمساءلة و المساجلة بهدف الاستزادة و الشمولية، دون توجس مسبق أو قطيعة مطلقة معه. بانتهاج هذه الإستراتجية –أعتقد– أنّ النقد العربي يدرك سبيله إلى التأصيل، ويحقق ندّيته و فرادته عن الآخر.

الهوامش:

[1]– ينظر: رواء نعاس مُحَمَّد: المثاقفة و المثاقفة النقدية، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، العددان (03-04)، المجلد (07) 2008، ص172. و ينظر أيضا: مُحَمَّد خرماش: أبعاد المثاقفة في النقد الأدبي العربي المعاصر

http://manahijnaqdia.3oloum.org/t8-topic

[2]– مُحَمَّد مفيد الشوباشي: رحلة الأدب العربي إلى أوربا، دار المعارف بمصر، 1968، ص101.

[3]– فادي إسماعيل: الخطاب العربي المعاصر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الو.م.أ، ط01، 1991، ص55.

[4]– ينظر: شكري مُحَمَّد عياد: المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، سلسلة عالم المعرفة، إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر 1993، ص09.

[5]– مُحَمَّد صابر عبيد: صوت الناقد الحديث (سؤال المنهج و دينامية النص النقدي الخلاّق)، مجلة عمان الثقافية، أمانة عمان الكبرى الأردن العدد123، أيلول 2005، ص04

[6]– عبد الله إبراهيم: المتخيّل السردي، مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة، المركز الثقافي العربي، ط01، 1990، ص05.

[7]– فخري صالح: النقد و الأيديولوجيا، المؤسسة العربية ، بيروت، 1992، ص29.

[8]– ينظر: سيد البحراوي: في نظرية الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط01، 2008، ص 15-16.

[9]– طراد الكبيسي: مداخل في النقد الأدبي، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط2009، ص10.

[10]- محمد بلوحي: الخطاب النقدي المعاصر من السياق إلى النسق (الأسس والآليات)، دار الغرب للنشر، ط2002، ص134.

[11]- ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، المغرب، ط02، 2000، ص191.

[12]- ينظر: المرجع نفسه، ص239-240.

[13]- ينظر: محمد بلوحي: الخطاب النقدي المعاصر من السياق إلى النسق (الأسس والآليات)، ص32.

[14]- حسين علي جمعة: المسبار في النقد الأدبي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص 22.

[15]- ينظر: ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، ص241.

[16]- ينظر: المرجع نفسه، ص241.

[17]- ينظر: المرجع نفسه، ص251-252.

[18]- سيد البحراوي: في نظرية الأدب، ص28.

[19]- محمد محفوظ: الحضور و المثاقفة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/المغرب، ط2000،01، ص110.

[20]- محمد محفوظ: الحضور و المثاقفة، ص116.

[21]- المرجع نفسه، ص109

[22]- المرجع نفسه، ص109.

[23]- سيد البحراوي: في نظرية الأدب، ص33

[24]- المرجع نفسه، ص35.

[25]- ينظر: حلام الجيلالي: المناهج النقدية المعاصرة من البنوية إلى النظمية، مجلة الموقف الأدبي، ص13.

[26]- ينظر: على جواد طاهر: مناهج البحث الأدبي، المؤسسة العربية للكتاب، بيروت، 1989م، ص20.

[27]- عبد الله إبراهيم: المتخيّل السردي (مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة)، ص06-07.

[28]- يمنى العيد: في معرفة النص، (دراسات في النقد الأدبي)، دار الآداب، بيروت، ط04، 1999، ص128.

[29]- ينظر: حسين علي جمعة: المسبار في النقد الأدبي، ص 20

[30]- سيد البحراوي: في نظرية الأدب، ص37.

[31]- يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، الدار العربية للعلوم، ط01، 2008م، ص56

[32]- رحمن غركان: ثوابت الإجراء النقدي (القراءة..المنهج...)، قسم اللغة العربية، كلية التربية بجامعة القادسية/ شباط 2010.

[33]- حسين علي جمعة: المسبار في النقد الأدبي، ص20.

[34]- حسين علي جمعة: المسبار في النقد الأدبي، ص13-14.

[35]- يمنى العيد: في معرفة النص، ص26.

[36]- المرجع نفسه، ص26.

[37]- ينظر: طراد الكبيسي: مداخل في النقد الأدبي، ص 13.

[38]- محمد صابر عبيد: صوت الناقد الحديث (سؤال المنهج و دينامية النص النقدي الخلاّق)، ص04-05.

[39]- حسين علي جمعة: المسبار في النقد الأدبي، ص 09.

[40]- ينظر: إبراهيم أنيس الكاسح : المثاقفة و المصطلح النقدي العربي :
:http://www.alukah.net/literature_language/0/71010/#ixzz48Yy9r8ve

[41]- يمنى العيد: في معرفة النصّ، ص31.

[42]- المرجع نفسه، ص31.